

الثقافة العلمية بين الواقع والطموح

رواية

وليد المسعودي

يرتبط مفهوم العلم في العقل الغربي الحديث بالتطورات المتراكمة التي حدثت على صعيد علاقة الإنسان مع الطبيعة والمجتمع من تطورات في مجال التجارة، والصناعة، وبداية المكتشفات العلمية التي غيرت شكل الحياة على الأرض منذ أربعة قرون ولا تزال في وتيرة متصاعدة ومتنامية من التشكل، وإعادة الإنتاج، في صور متعددة من التخصص والتنوع والاختلاف، بعد أن كان (أي العلم) تابعاً وخاضعاً ومهيمناً عليه من قبل أشكال المعرفة التقليدية التي تحارب الإبداع والتجديد، متمثلة بسلطة الكنيسة التي كانت تضع علومها في خانة المقدس، الذي لا يمكن أن يخضع إلى لغة العلم والتجربة وتمثيله بشكل بشري. هكذا كانت "المعرفة العلمية" معرفة دينية غير مؤسسة على النظام والعقل، تستند إلى الأسطورة والرمز والتعاليم... الخ.

والسلوك في ذهنية الأفراد والمجتمع على حد سواء؟

لا تزال المعرفة العلمية أو مفهوم العلم لدينا لا يحمل المكانة الطبيعية، فيظهر متداخلاً مع معارف وثقافات لا تنتمي إلى العلم بصلة، بل تنتمي إلى المعرفة الدينية والاجتماعية السائدة والموروثة عبر أجيال وحقب زمنية غابرة، تحيط ذهنية مجتمعاتنا وتشكل جاهزها الحي في التفكير والسلوك، فتظهر المعرفة غير خاضعة إلى لغة العلم في المعنى الحديث، تلك المعرفة التي تشيع السؤال والشك والتغيير والبناء التراكمي المستمر، معرفة مؤدجة مبثوث في داخلها الخضوع والطاعة واحترام الجهل وعدم الاهتمام بالعلم، لأنه في النهاية حكر على أقلية من النخبة؛ سواء كانت داخل العقيدة الدينية أم لدى الحزب العقائدي الشمولي.

إن مفهوم العلم يتحدد من خلال كونه المعرفة المنظمة التي تعيد مساءلة ذاتها بشكل فاحص ودقيق، عبر أدوات من الخبرة والمهارة والاكتشاف الدؤوب والمستمر، ولأن العلم يحتوي على الاتساق المنطقي الذي من الممكن أن يضحى به - كما يرى رولان أومينيس - من أجل اكتشاف جديد على الرغم من الصراع الكبير الذي يعيشه العالم مع النظريات التي لا تقبل الزعزعة أو التغيير، على عكس ما هو موجود في العقل الديني الذي يعتمد الاتساق بشكل ثابت ونهائي، باعتباره أصلاً معرفياً صادراً من جهات غير بشرية، ومن ثم صيرورته في خانة اللاعلم¹. وذلك الأمر ينطبق بشكل حقيقي على طبيعة فهمنا للعلم، بمعزل عن الوسائل التي صنعتها، وهنا نقصد بالعلم جميع الإدراكات التي يتمثلها العقل العربي الإسلامي من معارف وحقائق، توضع في خانة الصواب والتصديق، وعدم محاولة نقدها أو تجاوزها، وذلك باعتبار أن مفهوم العلم لدينا ينقسم إلى العلم الأولي المنبثق من الذات الإلهية التي علمت الإنسان و"أرشدته" إلى الحقيقة والحكمة، والعلم الثاني هو المكتسب والبشري الذي لا يمكن أن يصل إلى مستوى الأول باعتباره محصلة

وتاريخ الصراع بين العلم والكنيسة يحمل في طياته صراعاً بين طبقات دينية كهنوتية وإقطاعية من جهة، وبين تجارية عقلانية برجوازية ناهضة من جهة أخرى، بدأت مع علماء وفلاسفة مثل فرنسيس بيكون، ورينيه ديكارت، وكوبرنيكوس، وغاليليو، ونيوتن، وباسكال... الخ، بعد أن تم الانتقال من مفهوم "الذاتية" التابع إلى نظام سلطة الكنيسة، ضمن قيم الجماعة التي تفكر بدلاً عنه وتحيط وجوده إلى مفهوم الذاتية الذي يطور وجوده ويعيد إنتاجه بشكل تراكمي ومنظم، معتمداً على قيم الحرية والاختيار والبحث العلمي المستمر، وصولاً إلى معرفة لا تملك النهاية أو الحدود مع المعرفة العلمية الحديثة، وذلك بسبب ما أسلفنا من مميزات أعلاه، فضلاً عن ما جاءت به المكتشفات الحديثة في العلوم التي غيرت معنى الزمان والمكان من الثبات والجمود إلى التغيير والحركة الدائبة، متمثلة بالنظرية النسبية لايشنتاين.

إن مفهوم العلم في شكله الحديث أصبح مؤسساً على النظام والتراكم والمرونة والنسبية والحركة والتغيير... الخ، وهذه الأسس هي وليدة الحدائث الغربية وتطورها المتصاعد بشكل مستمر.

ولكن كيف يبدو أو كيف تظهر ثقافة العلم في مجتمعاتنا العربية الإسلامية؟ وهل استطاع ذلك المفهوم لدينا أن يتجاوز "تزمته" أو صميميته عبر أجيال وحقب وثقافات منذ ظهور الإسلام إلى وقتنا الراهن؟ وهل تشكل المدرسة في ذاتها نواة علمية في إيصال المعرفة دون محددات معينة ترسمها أشكال السلطة الجاهزة من سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية... الخ؟ وماذا عن المجتمع هل يملك النظام أو الانتماء إلى ثقافة النظام والمعرفة المنظمة ضمن أشكال معرفة غير سلطوية أو قسرية؟ وما هي العقبات التي تقف في طريق العلم أو التفكير العلمي؟ وكيف يمكننا أن نحقق العلم كسلطة وطاقة بشرية نافذة إلى المستقبل، وجعلها مؤثرة وجاهزة ضمن حيز التفكير

لدى الأجيال الصاعدة، ذلك الأمر غائب عن الحضور داخل المؤسسة التربوية في العراق على سبيل المثال، فكل ما يتعلمه التلاميذ في مختلف المراحل الزمنية الدراسية سرعان ما يزول من الذاكرة، بسبب هيمنة "ثقافة الحفظ"، وعدم توفير بدائل لطرق التدريس الحالية، تلك التي تجعل مادة الدرس أكثر متعة ورغبة من قبل التلاميذ، من خلال ربط المادة العلمية بالواقع اليومي، والأمثلة كثيرة بدءاً بالغذاء الذي نأكله، وانتهاء بالتكنولوجيا التي نستعملها بشكل يومي، أو بالعالم الذي نعيشه ولا ندرك أنه عالم متغير أو غير ثابت على صورة معينة، وذلك الأمر يتم من خلال الدخول إلى التطبيق العملي للعلوم ومعرفة عن قرب، أي من خلال وسائل الإيضاح التي تجعل مادة العلم أكثر حيوية، وهذه الوسائل تشمل الصور واللوحات والأفلام المتحركة والثابتة، فضلاً عن توفر أو وجود معامل العلوم المختبرية والزيارات الميدانية التطبيقية، كل ذلك غائب -مع الأسف الشديد- داخل مؤسساتنا التربوية، الأمر الذي يجعل الزمن التربوي لدى الطلبة عاطلاً عن النمو بلا مراحل تتعلق بالانتقال من مرحلة النمو واكتساب المعارف المترامية، وتكوين الملامح الحقيقية للشخصية التربوية، وصولاً إلى مراحل الاختيار وتثبيت الهوية الجديدة والمختلفة للشخصية التربوية، تلك التي تمتلك عناصر النقد والبناء على صعيد المستقبل.

إن الصف التربوي يعاني من إمكانية تحويله من جماد غير فاعل إلى مادة قابلة للحياة والتطور، بفعل عملية التلقين التي كثيراً ما يستخدمها القائمون على العملية التربوية في كثير من المدارس، فمادة التاريخ تدرس بطريقة الروي والحكاية للحدث التاريخي من خلال ربطه بالحاضر وربما المستقبل، من خلال القيم والمعايير وما يغيب هنا صفة المنهج أو العقل الذي يجعل ذلك التاريخ ليس سلسلة أحداث وثقافات بقدر ما هو سلسلة من التطورات والتغيرات تشهدها الذاكرة الإنسانية طيلة حقيقتها الزمنية المعاشة، وهكذا الحال مع علوم الفيزياء التي يجري تلقينها نظرياً إلى الطلبة دون معرفة الأسس التي تستند إليها؛ أي علوم الفيزياء، التي من خلالها تم تغيير الكثير من المعارف والثقافات التي كان الإنسان يؤمن بها ضمن مجال المطلق من القيم والمعرفة والسلوك، فنظرية الجاذبية تدرس بشكل نظري رياضي، وليس بشكل علمي معرفي، كل ذلك من شأنه أن يجعل المجتمع الصاعد والجديد مجتمعاً غير علمي، أو أنصاف معلمين سرعان ما تزول من ذاكرته جميع المعارف والمعلومات التي تحصل عليها أو عرفها في قادم السنوات.

وما تشهده المؤسسة التربوية في العراق من وجود الكم الهائل من أنصاف أو أرباع المعلمين لا يشير إلى أن مؤسستنا التربوية قادرة على تجاوز أزماتها في أزممتنا الراهنة على الأقل، الأمر الذي يؤدي إلى وجود عدد محدود بشكل كبير من مدرسي العلم أو المواد العلمية بسبب تردي المستويات الدراسية وعدم إمكانية تحصيلها بشكل ناجح وأكيد، ولو أجرينا إحصائية داخل أكثر المدارس العراقية، فإننا نجد الفئات التعليمية في مواد الاجتماعيات وليس في مواد العلوم، وذلك إن دل على شيء فإنه يدل على أن المؤسسة التربوية في طريقها إلى الزوال من حيث قدرتها على التواصل، وتحديد طاقة الإنسان وذاكرته، وإعادة الروح إليه من جديد، ولو أجرينا أيضاً مقارنة زمنية علمية بين جيلين تربويين مختلفين من حيث الزمان والمكان والثقافة حول الكثير من المعلومات والمعارف العلمية، فإننا نجد الجيل الأول

"الحياة الدنيا" وما فيها من نقصان وعدم اكتمال بشكل مستمر، وهكذا في ثنائية لا يمكن أن تلتقي أو تتوحد في إطار النقد والتجاوز، على الرغم من وجود الكثير من النصوص التي تحث على المعرفة والعلم والبصيرة، إلا أنها في نهاية الأمر تستخدم بشكل تأويلي وإيماني لصالح المعرفة الدينية وترسيخها؛ أي لا تستخدم بشكل محايد لأزمة وجودها؛ أي وجود المعنى المنبثق منها في الأزمنة القديمة المرتبطة بعوامل وظروف إنتاجها من بيئة سياسية واقتصادية واجتماعية، ثقافية... الخ. وعلى الرغم من وجود الكثير من "العلماء والفلاسفة" العرب والمسلمين الذين اشتغلوا في قضايا علمية كثيرة وأبدعوا فيها، فإنه في المحصلة النهائية -كما أسلفنا- لا يمكنهم أن يتجاوزوا الثابت أو الأصول المحركة لطبيعتها فهنا مفردة علم أو عقل من خلال البناء والتراكم والتجاوز.²

إن المجتمعات الحديثة المعاصرة أوجدت أحداثها من خلال نقد التعالي والميتافيزيقا، تلك التي تتحكم بوجود المعنى وفرضه على المجتمع بشكل نهائي، هكذا فعلت الحداثة الغربية مع رموزها أن قتلهم، "وهنا استخدام تعبير فرويد في مسألة قتل الأب"، ولم تبق لوجودهم أي شيء يذكر إلا في مجال التاريخ والذاكرة البشرية، والأمثلة كثيرة، وبخاصة في مجال العلم، بدءاً مع نيوتن الذي استطاع أن يقتل الفيزياء الغيبية المرتبطة بالقرون الوسطى واستبدالها بقوانين الحركة والجاذبية، وأنه لا يوجد فضاء مطلقاً على الرغم من أن نيوتن كان قلقاً حول مسألة غياب المكان أو الفضاء المغلق، لأنها لا تتسجم مع فكرته عن الله، على الرغم من أن قوانينه نصت على ذلك الأمر؛ أي عدم وجود فضاء مطلقاً.³

ومن بعد نيوتن وجد أيضاً ماكس بلانك الذي استطاع بدوره أيضاً أن يتجاوز وينسف مع (ميكانيكا الكم) "أهم مرتكزات العلم النيوتوني في الثبات وضبط القياس، وكذلك الحال مع نسبية اينشتاين التي نسفت مبدأ المطلق في العلم"،⁴ وبذلك تكون التجربة الغربية قائمة على نفي النفي بشكل مستمر، وأنه لا توجد ثوابت مطلقة أو جذور ثابتة تحيط الوعي البشري وتحدد مستقبله على عكس ما موجود لدينا من ذاكرة مؤطرة بوعي الثابت والمقدس، الذي لا يمكن زعزاعه وتجاوزه في الأزمنة الراهنة على الأقل، الأمر الذي يجعل تفكيرنا في العلم وأهميته محدداً ضمن خانة النسيان والإهمال إلى حد بعيد.

المدرسة والعلم

إن المدرسة لا تشكل اليوم بعداً مؤثراً في ذهنية الطلبة في العراق، وربما في العالم العربي، على حد سواء، وذلك لتخليها عن كونها نواة علمية مؤثرة على الأجيال الاجتماعية الصاعدة، تاركة الساحة أو الأفكار بيد الأصوليات، أو كما أسميناها في مقالات أخرى "مؤسسات الهامش الاجتماعي"، تلك التي أوجدها الاستبداد الشمولي العقائدي، انتصرت على أولى المؤسسات الأسرة والمدرسة، وهذه المؤسسات مرتبطة بالبيئة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المتردية لدى طبقات عريضة من المجتمع، تفكر بدلاً عنه وترسم صورة قائمة من الجهل والتخلف والعنف، وما هو موجود في مناهج التربية العلمية من فيزياء وكيمياء ورياضيات يتم تلقينه بشكل مفرغ من واقعيته؛ أي عدم ربط العلمي بالواقعي من أجل صيرورة ثقافة العلم والمواد العلمية في حالة الرسوخ الذهني والمعرفي، ومن ثم تكوين ذاكرة ثقافية علمية

عقبات في طريق العلم

يحدد الدكتور فؤاد زكريا مجموعة عقبات في طريق التفكير العلمي، من الممكن أن ندرجها كالتالي:

أولاً. الأسطورة والخرافة

الأولى تقدم تفسيراً نهائياً للعالم، وتشتغل على وعي الإنسان البدائي، وذلك باعتبار أن الأسطورة تنتمي إلى فضاءات ما قبل العلم، ومنتجة للمعلوم من المعرفة الجاهزة التي لا يحيطها السؤال والشك والنقد، وهذه الأسطورة تحاول أن تقلب العالم رأساً على عقب؛ أي تخرج الميت من الحي وليس الحي من الميت، أو وفقاً لتعبير الدكتور فؤاد زكريا تفسر غير الحي من الحي على عكس ما يسعى إليه العلم من تفسير الحي من غير الحي. أما الخرافة «فإنها جزئية تتعلق بظاهرة أو حادثة واحدة»⁶. ومجتمعاتنا العربية الإسلامية على الرغم من ظهور «الحداثة» بمختلف أشكالها من ثقافية واجتماعية واقتصادية، فضلاً عن ظهور المدن الحديثة وتطور العمران واستخدام التقنية الحديثة، فإنها من حيث التفكير والسلوك والمعرفة ما زالت تعاني من تداخل الأزمنة بالشكل الذي يجعلها تتعامل مع العلم ضمن نظرة الفائدة المادية من الاستعمال والتفكير العلمي في مجال العلوم فحسب، أي مجال الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا، أو مجال استخدام التكنولوجيا الحديثة دون الشعور بالإمكانية التي أنتجتها، أو عملية التطور والتوحيد بين العلوم الطبيعية والإنسانية. فعملية التفكير بطريقة علمية حديثة بالأفكار ذاتها وطريقة انبثاقها من الإنسان، تخلو من أية علمنة مرتبطة بالوعي بأن هذه الأفكار أشبه بالجسد الإنساني، تمر في مراحل الطفولة والشباب والنضج والشيخوخة... وهكذا ضمن جدلية متغيرة ومتطورة بشكل دائم. ما زالت مجتمعاتنا تفسر ظواهر الطبيعة والحياة وما يصيب الإنسان من كوارث وأمراض وحروب... الخ بطريقة غير علمية، من خلال استخدام لغة الأسطورة والخرافة⁷ وذلك إن دل على شيء فإنه يدل على تراجع بنية التعليم والتربية العلمية في هذه المجتمعات، الأمر الذي لا يجعل العلم رائداً في تطور مفهوم الحقيقة وجعلها مرتبطة بالبحث والملاحظة الدائمة وفقاً لحاجات المجتمعات وتطورها، بل يجعله تابعاً، في خدمة الأفكار الخرافية وتشجيع محاربة الإبداع والجديد والمختلف عن الجاهز الاجتماعي الموروث.

ثانياً. الخضوع للسلطة

ثانية العقبات التي تقف في طريق الفكر العلمي هي الخضوع للسلطة، وهذه العقبة تمتد في تفرعاتها، لتشمل الأفراد والأفكار والمعتقدات والأنظمة السياسية... الخ، وبخاصة إذا تحولت هذه الأخيرة إلى مرجعية مطلقة تحدد مستقبل الإنسان ضمن إطارها، وتسم المجتمعات بالعجز عن التجديد والإبداع، بعد أن يتم تمثيلها؛ أي المرجعية المطلقة من قبل شخصية كاريزمية تمتلك الحضور والتأثير، فيغدو كل شيء مفكراً به من خلال هذه الشخصية ودورها في صياغة الأفكار والعلوم والقوانين. والتاريخ زاخر بهذه المرجعيات؛ سواء في مجال العلم أم مجال الأثروبولوجيا الاجتماعية والسياسية، وشخصية أرسطو مثال حي في التأييد والتقدس الفكري والثقافي أكثر من ألف وخمسمائة عام، ولم تنزع مكانته إلا من خلال عصر الميكانيك مع غاليليو

في حقبة السبعينيات أكثر حضوراً، من حيث الذاكرة العلمية والمعرفة المتوفرة لديه حول قضايا تخص العلم والحياة ووجود الإنسان من الجيل الثاني، الذي يعيش في أزمنتنا الراهنة على الرغم من التطورات الهائلة والكبيرة في مجالات العلوم المختلفة من تقنية واتصالات ومعلومات... الخ. كل ذلك يعكس أثر البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية على المدرسة وحضورها التربوي، ما دامت الأخيرة - أي المدرسة - تتبع مسار السياسي السلطوي وتتعامل مع الطلبة وفقاً لمحددات الضبط العسكري الذي لا يمكن تجاوزه، الأمر الذي يجعل قيمة العلم متدنية ومراجعة لصالح المعارف الجاهزة التي تبثها الأيديولوجيات؛ سواء تلك المنتجة من قبل السلطة ووجودها القسري المباشر، أم من خلال التعبئة اليومية لمؤسسات الهامش الاجتماعي، تلك التي تحاول أن تجعل الإنسان ممراً لها من حيث المكتسبات والحضور السلطوي إلى حد بعيد.⁵

المجتمع والعلم

كذلك الحال مع المجتمع الذي يكاد يخلو من النظام والمعرفة المنظمة والهادفة في صنع المدينة الحديثة، تلك التي تشجع فيها حرية البحث والفكر واحترام الهوية الإبداعية التطورية لكل ما هو جديد وغريب عن بنية المجتمع الموروثة والتقليدية، فمجتمعاتنا تتعامل مع العلم ضمن حدود النسبي في اتجاهين أو طريقين متناقضين، الأول يتسم بالدهشة والاعتراب عن المنتج العلمي لغة وثقافة وممارسة، والثاني يتسم بالازدراء والتعالي عليه، وذلك باعتبار أن كل المكتشفات العلمية الحديثة التي استغرقت من العلماء المزيد من الجهد والبحث والعناء المستمر، وصولاً إلى الحالة الناجزة له؛ أي المكتشف العلمي، كل ذلك يواجه بالازدراء وعدم الاكتراث به، والتعالي عليه، لأنه في النهاية مرسوم في ذاكرتنا الثقافية أو موجود في نصوصنا الدينية «القرآن الكريم»، ولأن علاقة المجتمع بالعلم تكاد تكون شبه معدومة من حيث الاتصال والتفاعل، فإنه كثيراً ما يكون ذلك المجتمع (نموذج العراق) أقرب إلى الخرافة وإنكار قدرة العقل البشري على الاكتشاف، الأمر الذي يجعله أقرب إلى المجتمع العاطفي البسيط، وإن وجدت فيه أشكال ثقافية، فإنها تكون أقرب بدورها إلى الشعري والصوفي الذي يستغرق الواقع من خلال لغة الخيال والحلم وتأثير الأفراد عليه من أصحاب «الكرامات»؛ سواء من كانوا عابرين للزمن البشري الذين وجدوا في أزمنة غابرة أم من كانوا يمتلكون سمات تحريك وعي الجماهير من خلال لغة الأسطورة والخرافة في العالم العربي في الأزمنة الراهنة.

وهكذا نقول إن مجتمعاتنا تتعامل مع العلم ليس ضمن مقياس الحاضر والمستقبل وتحقيق التطور والانتقال من طور إلى آخر، بل ضمن مقياس القدم والاهتمام بالقديم والمعرفة الموروثة، تلك التي تقف جداراً صلباً أمام التجديد والتغيير والاهتمام بالعلم، فما دام القديم هو من يرسم طبيعة أفكارنا النهائية عن الحياة والكون والإنسان، فما هي الفائدة التي ترتجى من العلم والمكتشفات العلمية؟ وما هي أهمية سعي الإنسان إلى تحصيل العلم ما دام كل شيء مرسوماً ومعدداً سلفاً في ذاكرتنا الثقافية التي لن تتغير وتغدو صاحبة الاتجاه العلمي وترسيخ النظرة المرتبطة بوقائع الأشياء المشاهدة عياناً فكراً وسلوكاً ومعرفة؟

أن نظريته أصبح معمولاً بها فيما بعد.¹² يقول غاستون باشلار «لم يوقف شيء عجالات تقدم المعرفة العلمية سوى عقيدة العام الباطلة التي سادت منذ أرسطو حتى باكون ذاته، والتي لا تزال بنظر كثير من العقول عقيدة أساسية في المعرفة».¹³ وبذلك يكون العام والمنتشر في حالة تحوله إلى عقيدة عاملاً أساسياً في جمود الفكر ونهاية حقيقية لمفهوم الحركة والتسارع في التقدم البشري.

• **الشهرة:** وهنا ترتبط بعلاقة المجتمع مع الأفراد المشاهير الذين يأخذون زمانهم وزمان غيرهم، أو الأفراد الذين يمتلكون الشهرة في أزمنة وجودهم، ويكون لرأيهم حضور طاغ ومؤثر على الناس بحيث يلغى وجودهم الفكري والإنساني حول ما يصدر من هؤلاء المشاهير، ولأن هؤلاء يمتلكون الشهرة، فإن أفكارهم سرعان ما تجد القبول والتقليد، بعيداً عن مستوى الحقيقة والعلم حول ما يصدر منهم، ومجتمعاتنا ابتليت كثيراً بسلطة هؤلاء المشاهير على الرغم من أهمية حضورهم في زمنهم الفعلي، ولكن أن يتم ترحيل أفكارهم إلى أزمنة غيرهم دون وجود عامل النقد ومحايثة البيئة والمجتمع القديم، فإن ذلك يفقدنا عامل التطور والتغيير وإيجاد المختلف عنهم، وهكذا الحال مع الذين يمتلكون الشهرة في الأزمنة الراهنة، فإنهم يشكلون علامة في التميز والاختلاف والتأثير على المجتمع بشكل إيجابي أو سلبي، وما هو موجود لدينا لا يحمل التأثير المرتبط بالشخص المبدع، العالم، بقدر ما هو مرتبط بمزدوجتين من الشهرة، الأولى مرتبطة برجل الدين

الذي خاض صراعاً عنيفاً مع نظرة أرسطو القديمة إلى العالم «بوصفه متمركزاً حول الأرض، كما كانت تقول نظرية في الحركة مبنية على أسس ميتافيزيقية».⁸ وهذه النظرة لدى أرسطو كانت تمثل سندا كبيراً للقرون الوسطى ومرجعياتها المتعددة في الأفكار والعلوم، ونصيبنا نحن المجتمعات العربية الإسلامية كان وافرًا من القبول بمطلقات أرسطو بشكل لا يقبل الرفض، وصولاً إلى جعله مع أفلاطون في مصاف النص المقدس، أو بمنزلة الأئمة المعصومين لدى الفارابي.⁹

ومن أهم الدعامات التي تستند إليها هذه العقبة:

• **القدم:** إن السلطة دائماً تستند إلى القديم في تبرير وجودها، وذلك لأن القديم قد تمثل في ذهنية الناس وأصبح في مجال المقدس، الأمر الذي يجعل المجتمع عاجزاً عن الإتيان بالبديل والمختلف عنه، ومن ثم يتم تقسيم الزمان بطريقة مقلوقة تقول إن التطور يبدأ مع القديم وينتهي مع الجديد، بحيث يكون الماضي هو الهرم والمستقبل هو القاعدة، وهكذا يكون القديم محوراً لكل شيء لدى المجتمعات المتخلفة التي تتحكم بها سلطات مطلقة من الأفكار والأنظمة والقوانين. وحال مجتمعاتنا العربية الإسلامية لا يخرج من ذلك الأمر بكثير، ولكن هذه النظرة سرعان ما تغيرت مع المجتمعات الحديثة، التي بدأت منذ القرن الثامن عشر وما قبله، تعي بأهمية التأريخ للمعرفة البشرية وعدها بمثابة السلسلة المتصاعدة عن طريق التراكم المستمر، وبذلك يكون الحاضر صلة وصل للمستقبل وليس للماضي الذي كان يأخذ في زمانيته صفات الله، باعتباره محرماً للمعرفة والأفكار والقوانين... الخ، كل ذلك تمثل في طروحات هوبر، وباروك، واسبينوزا، وفيكو، وهيوم، وغيرهم ممن نظروا إلى العصر الذهبي للبشرية باعتباره المستقبل وليس الماضي، وبذلك تم الانتقال من الزمن الأسطوري، المقدس إلى الزمن الفعلي المرتبط بالتأثير والفعل البشري إلى حد بعيد.¹⁰

• **الانتشار:** من أهم دعائم الخضوع للسلطة، ولكنه يختلف عن القدم أن الأخير يسير في الاتجاه الطولي أو العمودي للتاريخ، أما الانتشار فإنه يأخذ الاتجاه الأفقي من التأثير على البشر، وكثيراً ما تكون الأفكار المنتشرة بين الناس تمثل عقبة أمام التفكير المنفرد والحر في المجتمعات التقليدية، وذلك بسبب أن الأفكار العامة تجد التصديق والقبول أكثر من غيرها، باعتبار أن الجميع يؤمن بها، ومن ثم لا يجوز الشك في مضامينها وأسسها، والتاريخ يحدثنا كثيراً عن العلماء الذين تحدوا سلطة الأفكار العامة والمرجعيات المطلقة، فها هو جيمس وات الذي قوبل اختراعه «الآلة البخارية» بالكثير من التهكم والسخرية من قبل الناس، إلا أنه استطاع أن يقدم للبشرية «عملاقاً في مرحلة الطفولة غير فيها معالم حياة الناس ومستوياتهم»،¹¹ ولكن قد يكون هنالك بالمقابل تأثير الأفكار العامة والمبادئ السائدة لدى العلماء أنفسهم، بأن يرفضوا كل جديد في العلم، من دون أن يوجد الاتساق المنطقي المرتبط بالمبادئ وقوانين العلم الصارمة، ومثالنا هنا عن (ألْفريد فيغتر) عالم الجيولوجيا والظواهر الجوية الألماني، الذي نشر كتابا العام 1915 أصل الفجوات والمحيطات تحدث فيه عن نظريته في الانجراف القاري «وهي تنص على أن أجزاء من القشرة الأرضية ليست ثابتة بشكل نهائي». قوبل هذا العالم بالرفض النهائي والشرس من قبل العلماء على الرغم من



مشهد من مسرحية «عطسة» نظمها مسرح الحرية في جنين.

الذي يؤثر بشكل طاع على الجماهير من خلال لغة المجاز والتعالي الرمزي، الأيديولوجي، والثانية نجد الحضور في مجالات الرياضة والغناء والسينما... الخ، بحيث تصبح العلامة الأخيرة أكثر تأثيراً على الناس الذين يندمجون مع هذه العلامة الأخيرة إلى حد التقليد وإلغاء الكيان الشخصي والوجودي.

• **الرغبة أو التمني:** من دعائم الخضوع للسلطة الرغبة أو التمني، وهي موجودة لدى الأفراد بشكل خاص ولدى السلطة الحاكمة سياسياً واقتصادياً وثقافياً، فالذي يحافظ على امتيازاته من خلال الأفكار والأيديولوجيات كافة، دينية أو دنيوية، فإن خيانة الحقيقة والتصديق تكون وفقاً لما يتمنى ويرغب ضمن مجال مصالحه وحياته التي يريد، كذلك الحال مع السلطة التي تشبث بـ «حقيقتها» بعيداً عن درجة وجود الجدوى من التطور أو تحقيق العلم، بما يفيد المجتمع ككل، والتاريخ يحدثنا كثيراً عن النماذج الفكرية التي حاربت الإبداع العلمي والثقافي من أجل مصالح دنيوية بعيداً عن مستوى الحقيقة والعلم، والكنيسة مثال واضح لذلك الأمر عندما رفضوا النظر بمنظار غاليليو المقرب جداً، والذي يضع السماء أمام العين بشكل دقيق وجوهري أفضل من رؤيتها ضمن عالمهم الذي تعودوا وارتاحوا له كثيراً، وذلك باعتباره عالماً يسوده اليقين والاطمئنان والراحة لا يمكن أن يتنازلوا عنه بسهولة لصالح العلم الجديد، الذي يغير كثيراً وجودهم ويلغي الامتيازات التي يحصلون عليها.¹⁴

ثالثاً. إنكار قدرة العقل

إحدى العقبات التي تقف في طريق التفكير العلمي هي إنكار قدرة العقل البشري في الإبداع والاكتشاف، وبخاصة في مجالات المعرفة الأدبية والفنية، التي يتم فيها التعويض عن العقل من خلال وجود قوى تتمثل في «الحدس» أو الإلهام، وهذه القوى لا يستطيع الإنسان الحصول عليها من خلال التجربة والملاحظة، بل من قبل فكرة الحدس ذاتها التي قد تكون مرتبطة بقوى من خارج العقل البشري، أو يكون دور العقل في الإبداع دوراً ثانوياً، وذلك الأمر وجد لدى المذهب الكلاسيكي الذي كان يعتقد بوجود عقل أول «خارج الوجود البشري» محرر للعالم، ومن خلاله تصدر العقول الأخرى، في حين أن عقل الحدس كان نقدياً، أو كما يعبر عنها جان فرانسوا ليوتار بأنها «تصوغ التناهي وتقدم العقل الذي يحضر المعاقلة على أساس المعاقلة نفسها»، أما ما بعد الحدس فإنها تجريبية نقدية أو ذرائعية.¹⁵

إن إنكار قدرة العقل البشري في الإبداع يقود إلى فكرة التعميم، ومن ثم الثبات الذي يمثل سمة رئيسية للمجتمعات التي تعجز عن مساءلة مصادرها المعرفية وإخضاعها إلى مجال العقل والنقد، ومن ثم محاولة تجاوزها. وتاريخ الصراع بين أهل العقل والنقل في الحضارة العربية الإسلامية يشير في حقيقته إلى صراع بين أهل النظر والعقل وبين أهل الثبات والموروث، الأول يتخذ عقله من البرهان والدليل العقلي في الإيمان والمعرفة، والثاني يعتمد على الفيض والحدس، وما موجود بينهما لا يحتمل وجود المعرفة البشرية المترامية التي من شأنها أن تعطي للعقل مساحة أكبر للفهم والحرية، وبخاصة بعد أن ساد الشكل الثاني من المعرفة طيلة قرون طويلة بعد أن تخلت الفلسفة عن كونها مرشدة للعقل والتقدم البشري ذاته، من خلال مهاجمة العقل المتسائل والمتفلسف في عبارات (من تمنطق تزندق)، وفي محاربة الكثير من

الفلاسفة، وإحراق كتبهم واتهامهم بالتكفير والخروج على نسق الأمة - الشريعة الإسلامية.¹⁶

رابعاً. التعصب

وذلك الأخير يوجد عندما يغلب الأفراد قيم التطرف والعصبية واللجوء إلى تقديس الهوية الداخلية للمجتمع؛ سواء أكان ذلك المجتمع ينتمي إلى حدود الطائفة والقومية والدين أو المذهب أو التطرف في مجال الرأي العلمي والأدبي والمعرفي، فكل ذلك يعيق عملية المساءلة وتفريغ الذات من حدودها المطلقة التي تعتقد أنها الأخيرة والنهائية، ومن ثم يكون التعصب عقبة أمام المعرفة العلمية الجديدة، التي تتطلب المرونة وعدم اليقين النهائي حولها، والتعصب عادة ما يرتبط بالعقل الجمعي لدى مجتمعاتنا، الذي يصنع لدى الأفراد الكثير من الموانع التي تؤثر في سلوكهم على تقبل الآخرين واحترام وجودهم المعرفي والإنساني.

خامساً. الإعلام المظلل

وذلك الأخير من أبرز «مهددات» المعرفة العلمية، وذلك باعتباره نشاطاً يتم بطريقة واعية من قبل العاملين عليه، وذلك الوعي عادة ما يكون مصاحباً لأيديولوجيات وتصورات تغيب عنها صفة الحياد والعلمية لتكون الموعوظ عنها جميع المصالح والغايات التي تقف وراء هذه المؤسسة الإعلامية أو تلك بشكل نسبي، ولا توجد مؤسسة إعلامية في العالم العربي تتبنى المعرفة العلمية الهادفة دون أن تكون مصابة بعقد الأيديولوجيا التي تتبع مسار السلطة السياسية والاجتماعية السائدة، وهكذا نقول إن الإعلام المظلل يلعب اليوم دوراً كبيراً في بناء الكثير من التصورات المغلوطة حول الكثير من المعارف والأحداث والمجتمعات في عالمنا المعاصر، فعلاقة الغرب مع الشرق إعلامياً علاقة مشوشة وغير علمية من قبل الطرفين، من خلال التغذية العكسية التي تصنعها مؤسسات الطرفين، فالأول أيديولوجي يضع العربي الإسلامي في صورة البدائي والمتخلف لغايات سياسية وأيديولوجية بشكل نسبي، وكذلك الحال مع ما هو موجود لدينا من تصورات نسبية حول الآخر المختلف من كونه أكثر «سلبية من حيث الأخلاق والقيم التي يحملها»، وهنا يكون التركيز على الجنس فحسب وليس على قيمة الحضارة والتغيرات التي طرأت على المجتمعات الحديثة طيلة أربعة قرون خلت، والتي أسست ما هو موجود اليوم من مجتمع يتبع مسار التقدم ويخضع كل شيء إلى العقل والعلم وصانع الحضارة ورائدها الوحيد في الأزمنة المعاصرة.

كيف يكون العلم مكنياً؟

إن إمكانية تحقيق العلم كمفهوم حديث قائم على مقاييس التجريب والملاحظة والتراكم والنسبية في مجتمعات ما قبل العلم أو الحدثة يلاقي الكثير من المعوقات والمشاكل التي تترتب على القول العلمي والجرأة في مخاطبة الواقع ضمن معيار النقد وإعادة النظر بالأسس كافة التي يستند إليها الفكر العربي الإسلامي، وهذه المعوقات تصطدم ليس بالمعرفي والثقافي والتربوي فحسب، بل بالسياسي السلطوي الذي يتحكم في طبيعة إنتاج ذلك الفكر وتغيب مسألة التطور والنظرة إلى المستقبل بشكل إيجابي متفائل، فتحقيق العلم ينبغي أن يمر من خلال تحقيق مجموعة من «الإمكانات» تتعلق بالمعرفة والسياسة والمجتمع والتربية من الممكن أن

أشكال هذه الطبقات أو النصوص المعرفية والثقافية، أو ظهرت بشكل أكثر من غيرها، فالنص الأول هو الطبقة الأولى التي منعت الإسلام من التعدد في الفهم والإدراك هو نص البداوة والعصبية التي حاول الإسلام أن ينقلها من القبيلة إلى الدين أو الأمة المؤمنة، المرتبطة بأصل ومآل واحد، ولكن كل ذلك لم يتحقق، فذلك النص سحب نفسه إلى الدين الجديد، واستطاع أن يغير شيئاً فشيئاً معاملة وحقيقته، والنص الثاني هو نص الإسلام «القرآن الكريم» والسيرة النبوية الشريفة باختلاف تنوعاتها وأشكالها بين الفرق والمذاهب الإسلامية، وذلك النص يعاني من إشكالية في الفهم والتلقي منذ أن أصبح هذا النص حملاً لوجوه كثيرة ومتعددة ومتناقضة مع بعضها البعض، الأمر الذي حدا بالسلطة السياسية المنتصرة فيما بعد إلى الاعتماد على نسخة واحدة من النص المعرفي، وتجاوز بقية النسخ، لأنها لا تتفق مع الأيديولوجيا التي يمتلك، وهي أيديولوجيا التبرير والدفاع عن الذات وغايتها المصلحية، والنص الثالث هو نص الآخر، أو هو طبقة الحدائث الغربية ومكتسباتها التي جاءت ولا تزال عن طريق الهيمنة والوصاية، وليس عن طريق التفاعل والإبداع.

تجعلنا نشارك في صناعة الحضارة لا متلقين لها ومستهلكين لكل ما هو جديد وغريب عن بنيتنا المعرفية والثقافية، وبخاصة أن التوحد العالمي في شروط الاقتصاد والسياسة والثقافة أصبح مؤسساً من قبل المراكز وليس الأطراف التي يراد لها دائماً أن تكون في مؤخرة الحضارة والتقدم لا غير.

أولاً. إمكانية التحول في بنية المعرفة

أولى الإمكانيات التي من شأنها أن تحدث التحول في بنية الإنسان هي طبيعة المعرفة وكيفية تلقيها ومدى استجابة المجتمع لها من حيث القبول والرفض والمساءلة والتجاوز، وبما أن المعرفة السائدة لدينا «المجتمعات العربية الإسلامية» هي معرفة جاهزة، ثابتة تستند إلى آليات دفاعية منذ مهبط السدود الأولى (تعبير باشلار)، فإن مسألة البدء بالتصحيح وتجاوز الرأس المعلق غاية أساسية لتدارك العلم والمعرفة العلمية، ومهبط السدود الأولى يعلمنا أن النص المعرفي الثقافي متعدد ومتداخل بين القديم والجديد، وكأننا أمام طبقات أرض رسوبية يؤثر بعضها على البعض الآخر، من حيث الاندماج والتفاعل والظهور، وإن اختلفت



من دورة للتصوير السينمائي للشباب نظمها مسرح الحرية في جنين.

وهذه النصوص الثلاثة وجدت لدينا كنسخ معرفية من خلال شخصية الشمولي الواحد الذي لا يقبل التعدد والاختلاف، فالتعدد من شأنه أن يحدث التراكم والتغيير، ومن ثم المساءلة والرفض، ذلك الأمر كان معمولاً به قبل أن تهبط السدود الأولى للمعرفة، ليصبح النص الديني على سبيل المثال مطلقاً وغير متعدد الوجوه ولا يحتمل النسبية والصور المختلفة.¹⁷

إن أولى الإمكانات في تجاوز سياق المعرفة الجاهزة يتمثل في العودة إلى الذات بشكل معرفي، وتوضيح أنه لا يمكن بناء منظومة معرفية معينة بمعزل عن الوقائع والأشياء التي تحيطها، أي أنها معرضة للتواصل مع البيئة المحيطة بها، ومن ثم كل ما يصدر عنها محكوم بتلك البيئة، وما يحدث فيها من تقلبات وصراعات داخلية، والأمثلة هنا تتمثل في طبيعة إنتاج النص الديني «القران الكريم»، بدءاً بالأزمة المكية وانتهاء بتشكيل دولة المدينة في الأزمنة المدنية، كل ذلك جعل منظومة الإسلام المعرفية مشكلة على الاختلاف وتعدد الوجوه، ومع نهاية الزمن الإنتاجي لهذه المنظومة المتمثلة في حياة الرسول محمد (ص)، توقفت المعارف بأن تكون مختلفة ليؤسس الحد والصورة النهائية المنجزة بعد صراعات وحروب أهلية حول ملكية التأويل، وهكذا أصبحت المعرفة نهائية، ليست لأنها صادرة من قبل الله فحسب، بل لأنها أصبحت في سياق الجاهز والمقنن غير الخاضع للمساءلة والنقد والاجتهاد، وما هو موجود لدينا اليوم لا يخرج من ذلك السياق، بحكم أن الزمن المعرفي طيلة قرون طويلة لم يخضع إلى التبدل والتغيير، وإن ظهرت هناك دعوات وطروحات بضرورة الإصلاح الديني والتجديد منذ بداية القرن التاسع عشر إلى الأزمنة الراهنة، إلا أنها في النهاية كانت تخاطب الأصول والنصوص الأولى بعيداً عن محايثة الزمن المعرفي الأول، أو إعطاء رؤية تتناسب مع ذلك الزمان، وليس مع الزمن المعاش والراهن.

إن المعرفة العلمية حول ذاتنا الثقافية تحرنا من مسألة ادعاء المعرفة بشكل نهائي، وتضعنا أمام الحقيقة التي تقول إن مساحة العقل لدينا محدودة، وينبغي لها أن تتوسع لتشمل اللامفكر فيه والمستحيل التفكير فيه، وصولاً إلى معرفة لا تعرف الثبات أو الدوران حول نفسها، تتبع الإنشاء والتكوين بشكل دائم، وذلك الأمر يتم من خلال الدخول إلى مضمار الواقع «واقعا ثقافي ومعرفي»، وتفريغ الذات من الأسطوري والخرافي الذي يهيمن على طريقة تفكيرها، وسلوكها ونظرتها إلى المستقبل والانتقال من مرحلة التفكير ما قبل علمي (المرتبط بعدم الاعتراف بقدرة العقل البشري على الإبداع والخلق والإيمان بفكرة التقدم البشري ارتباطاً بالزمن المقدس الذي يجعل الماضي هراً للمستقبل) إلى مرحلة التفكير والبحث عن الأسباب في نشوء المعارف والأفكار بشكل جذلي وعلمي ضمن سلسلة من التفاعل والاحتكاك والتلاقح مع الثقافات الأخرى، مصاحباً لمفاهيم العلم الحديثة، متمثلة بالتنظيم، والتراكم، والدقة والتجريد، والنسبية، واليقين، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن الأخير لا يحمل الثبات، بل الحركة الدائبة نحو آفاق مجهولة يكشفها العقل البشري.

ثانياً. إمكانية التحول في بنية الدولة أو مفهومها

لا تزال بنية الدولة في العالم العربي تعتمد على التاريخ، وهنا نقصد

بإعادة إنتاج التاريخ السياسي القائم على العصبية والغلبة وتأثير الصراع والخلاف على التعايش والاختلاف، وكأننا لم نخرج من التاريخ أو نحن نعيش في التاريخ مثلما يعيش السمك في الماء وفقاً لتعبير جان بول سارتر.¹⁸

وعلى الرغم من التطورات والتغيرات في الأجهزة الإدارية والتنظيمية والأمنية لمفهوم الدولة، فإن الأخيرة لم تستطع أن تتجاوز تقليديتها القائمة على الاحتكار من قبل الأقلية «حزب، عشيرة، عائلة مالكة... الخ»، الأمر الذي يجعل ذلك المفهوم يتعد عن التطور والانتقال إلى سياقات الدولة الحديثة، ونموذج الدولة السائد لدينا أكثر قمعية واحتكاراً لمفهوم الحقيقة والمعرفة والعلم، ولا توجد فيه بشكل نسبي «فردات» بشرية مختلفة تستطيع أن تؤسس المختلف في بنية الدولة ذاتها، لأنها تعتمد القولية والتمثيل العضوي لقيمها من قبل المجتمع، أو لأنها تعلم الناس الاستغناء عنها، وذلك من خلال دعوتها بصورة ضمنية إلى التخلي عن الحياة الدنيا وما فيها من رغبات وطموحات، والتي يتم تعويضها بالمثل الأخلاقي في حياة ما بعد الموت. وهنا تتقدم الأخلاق على الدولة بالمفهوم الديني أو بالمفهوم الدنيوي ضمن قيم التضحية وإنكار الذات وصهر المجتمع ككل في كيان واحد، يعيش حالة الفناء في متعاليات ورموز تتعلق بالأمة أو الدين والشريعة أو الزعيم والقائد... الخ، الأمر الذي يلغي حالة الدولة ضمن حقيقتها المرتبطة بكونها أداة قهر وغلبة وسيطرة طبقات معينة على أخرى، بعيداً عن قيم المشاركة والتدرج المجتمعي أو الانتقال من بنية مجتمعية إلى أخرى أكثر تطوراً في صياغة مفهوم الدولة،¹⁹ وارتباطها بالعلم يكاد معدوماً، ليس من حيث تبنيها قيم العلم الحديثة فحسب، بل لعدم قدرتها على مواكبة العلوم الجديدة وإرسال البعثات العلمية المستمرة بشكل دائم، فضلاً عن خوفها من أن تصبح التربية العلمية أداة لتغيير المجتمع، ومن ثم نهايتها بشكل حتمي؛ أي نهاية قبولها كجهاز إداري وسياسي فاقد الشرعية، لأنه يستند إلى الماضي سلوكاً وثقافة وممارسة لجميع مكتشفات الحداثة والعلم ضمن حدود النسبي وليس المطلق.

إن إمكانية تحول الدولة إلى العلم أو تعاشقها للعلم حسب تعبير ليوتار يحتاج إلى تحقيق مجموعة إمكانات أخرى متفرعة ندرجها كالتالي:

- إمكانية الارتباط بالزمن العلمي الحديث: وذلك الأمر يتحقق من خلال تجاوز مسألة فساد الحس بالأزمنة التاريخية والعيش في الماضي، دون إدراك أن العالم يحمل سمات التغيير والتبدل بشكل مستمر أو العيش في أزمنة مختلفة ومتداخلة مع بعضها البعض، الأمر الذي يؤدي إلى عدم التجانس داخل الزمن الواحد، الأمر الذي يجعلنا فاقد لحرية التاريخ وحضوره البشري. إن تعاشق الدولة مع العلم يمكنها من السيطرة على الزمن، ويمنع تداول الأفكار والمعارف بشكل ثابت ومتواصل أو يمنع توريث رأس المال الثقافي توريثاً وراثياً (حسب تعبير بيار بورديو) بين الأجيال القادمة والجديدة.
- إمكانية تطور بنية الحظوظ الدراسية لدى الطبقات كافة: وذلك الأمر يتحقق من خلال تجاوز مسألة الاهتمام بالمراكز المدنية نسيان الضواحي والأطراف والمناطق الريفية والنائية بالنسبة لحظوظ التربية والتعليم، فتطور الحظوظ الدراسية بين أكثر الطبقات الاجتماعية يكون مدعوماً بوجود إستراتيجية عمل اقتصادي واجتماعي وثقافي،

تستطيع أن تؤثر على المجتمع وتخلق سلوكاً عاماً حول قضايا الإنسان، وتساهم في تحولات المعرفة ذاتها من سيطرة الذات الفردية التي تحكم الجماهير «رجل الدين على سبيل المثال» إلى حضور المجتمع الذي يفكر فيه الفرد بشكل حر، ويمتلك الإرادة في تفسيره وتأويل الكثير من القضايا المتعلقة بالمستقبل، تلك التي عادة ما تكون محتكرة من قبل نخبة أو أقلية من الأفراد؛ سواء داخل العقيدة الدينية أم الحزبية الأيديولوجية. وهذه المؤسسات تشغل داخل المجتمع بشكل علمي وتؤثر عليه مثلما تؤثر المؤسسات الأدبية والفنية على المجتمع في الأزمنة الراهنة على الرغم من انحسار المؤسسات التي نذكر هنا، ولكن وجودها يعتمد على انتشار المعرفة العلمية وتحول الدولة ذاتها سياسة ومعرفة إلى العلم، وذلك الأمر يتحقق من خلال:

• **العمل على ترسيخ الاهتمام بقضية العلمنة:** وهنا نقصد بالعلمنة ضمن اتجاهين، الأول تاريخي يعنى بنشأة العلمانية وبدايتها الأولى التي ترتبط بالوجود الزمني الدنيوي، وصولاً إلى اتحادها مع المنجزات العلمية الحديثة منذ أربعة قرون، إلى الأزمنة الراهنة وما صاحبها من تعثرات وانتكاسات وتحولات إلى سياقات «العلموية» والتطرف في عبادة العلم في القرن التاسع عشر، فضلاً عن وجود عوامل النجاح والفشل لدى الكثير من التجارب، وبخاصة تلك التي حدثت في العالم العربي والإسلامي في تونس ولبنان وتركيا... الخ أما الاتجاه الثاني فهو يأخذ بنظر الاعتبار الواقع الاجتماعي الراهن، ومدى صيرورة التجربة العلمانية وطبيعتها انتشارها، فضلاً عن وجود مواطن الضعف في كيفية قبولها من قبل المجتمع العربي، أو في كيفية انحسارها مؤسسياً في الإعلام والثقافة والسلوك البشري... الخ، والاتجاه الاجتماعي للعلمانية يعنى بنشر الأخيرة اجتماعياً والدخول في سجال حوار مع الأفكار السائدة التقليدية دون أن توجد هناك آليات استبعاد أو إقصاء من خلال طرح فكرة العلمانية ذاتها.

• **العمل على توسيع دائرة اللامفكر فيه داخل العقل العربي:** وذلك الأمر يتحقق من خلال توسيع دائرة الاهتمام باللامعقول والغيبى وغير المعروف ومحاولة وصفة ضمن ثقافة تاريخية معينة، وجدت في أزمنة محددة بشرياً أي أزمنة ما قبل العلم والحداثة، ولأن اللامفكر فيه يكاد يكون هائلاً في مجتمعاتنا العربية الإسلامية، لذلك تظهر محاولات كشفه وبيان وجود العوائق الإبيستيمولوجية التي تتحكم في حضوره ذات أهمية كبيرة، تلك المتعلقة بمجموعة من السلطة والتمثلات التي تحيط الوعي الفردي والجمعي على حد سواء، منها ما هو ديني يحرم على المجتمع التفكير في طبيعة الله والخلق واللجنة والنار والوحي والملائكة وجميع المعقولات الإلهية التي تقف فوق قدرة الإنسان ووجوده، ومنها ما هو اجتماعي مرتبط بالأعراف الاجتماعية التي تحرم على المرأة العمل والمشاركة الاجتماعية على سبيل المثال، ومنها ما هو اقتصادي وسياسي يمنع الناس التفكير في طبيعة السلطة ومدى انتقالها وصيرورتها لدى أقلية تتحكم في مصائر المجتمعات وتحدد سلوكهم ومستقبلهم. إن توسيع دائرة اللامفكر فيه داخل العقل العربي يعنى توفير قدر كبير من الحرية في إبداء الرأي وإخضاع اللامعقول إلى العلم والتفكير العلمي، وإنه لا توجد عوائق معرفية معينة تقف أمام الإنسان في التغيير من طبيعة اجتماعية معرفية إلى أخرى أكثر تقدماً وتطوراً على صعيد علاقة الإنسان مع المعرفة

تقود إلى تطور جغرافية التربية والتعليم لتشمل الجميع دون إقصاء أو تهميش، يذكر كما كان الأمر معمولاً عليه في الأزمنة السابقة (العراق) والحالية أيضاً، فتطور الحظوظ الدراسية لدى أكثر الطبقات الاجتماعية، وبخاصة تلك التي تعيش تحت مستوى خط الفقر يجنبنا مسألة الاستبعاد الاجتماعي لدى الأجيال الجديدة القادمة، وكل ذلك يبدأ منذ المراحل الدراسية الأولى «البداية الآمنة» وانتهاءً بالمراحل المتقدمة من الدراسة من أجل تفادي خطر البطالة ووجود تفاوت واسع وكبير في الفرص والإمكانات ضمن حدود الأزمنة القادمة.²⁰

• **إمكانية تحقيق مسألة الاستقلال النسبي في مسألة التعليم:** كثيراً ما يكون التعليم في العالم العربي تابعاً إلى الدولة أو هو معبر عن جهازها الأيديولوجي. ولا يمكننا أن نتصور تعليماً أو مدرسة لا توجد فيها شعارات الدولة الحزبية والأيديولوجية، الأمر الذي يجعل التلاميذ يعيشون الأفكار المطلقة والشمولية، ومن ثم النظر إلى مفهوم الحقيقة من جانب واحد، وهو الجانب الذي تصدره الدولة وحققتها الأيديولوجية، الأمر الذي يؤثر على طبيعة تلقي التلاميذ للعلوم والمعارف، ولا يجعلنا نملك الحماس والرغبة في تعزيز التطور ومحاولة ردم الحواجز أو الفواصل العلمية الكبيرة التي نعيشها كمجتمعات لم تدرك العلم، أو لم تستطع أن تعيش وفق مقياس العلم وفهم حركية العالم والزمن المعاصر. إن استقلالية التعليم بشكل نسبي عن الدولة يمكننا من تجاوز مفهوم الحقيقة الثابتة التي تدور حول المجتمع بشكل تاريخي، وذلك الأمر يتحقق من خلال دمقرطة المؤسسات التربوية والتعليمية واتباع الأساليب الحديثة في التربية، نظرياً وتطبيقياً من خلال استخدام الوسائل الحديثة في التعليم، متمثلة بأجهزة الحاسوب «الكومبيوتر»، والاستفادة من الخبرات والمهارات التدريسية لدى الدول المتقدمة، وبخاصة التجربة اليابانية، ومحاولة تطبيقها نموذجياً لدى أكثر المدارس لدينا، فضلاً عن الاهتمام بالجانب التطبيقي الإنساني في التربية والتعليم متمثلة في تجاوز أساليب الإكراه والعنف ضد التلاميذ، ومحاولة جعل الصف التربوي أو المدرسي أكثر متعة ورغبة من قبل الطلبة أنفسهم، فضلاً عن الاهتمام بالعلوم والمواد العلمية أكثر من المواد الأدبية والاجتماعية على الرغم من ضرورة الأخيرة وأهميتها، على أن تدرس بشكل يلغي عناصر الأيديولوجيا والتبجيل الذاتي والمجتمعي، كما كان الأمر معمولاً في أكثر المواد الدراسية في العراق سابقاً؛ مثل علوم التاريخ، واللغة العربية، والتربية الوطنية والإسلامية... الخ.

ثالثاً. إمكانية التحول في بنية المجتمع

لا يمكن أن تظهر التحولات في بنية المجتمع من طبيعة إلى أخرى أكثر تطوراً ما لم تظهر تحولات أخرى مرافقة أو مصاحبة لها أو متقدمة عليها أو العكس من ذلك وفقاً لطبيعة المجتمع ومدى امتلاكه لمحددات التغيير والتطور، وهذه التحولات هي ما ذكرناها أعلاه في بنية الدولة والمعرفة، ولأن التحولات الأخيرة تؤثر كثيراً على المجتمع ومدى تعاويه مع قضية العلم والفكر العلمي، إلا أن ذلك الأمر قد لا يتحقق بسهولة بسبب وجود تاريخ طويل من الفكر الخرافي والأسطوري يعزل الناس عن المعرفة العلمية ويؤطر وعيها بشكل مسبق حول الجديد والغريب من العلوم والمكتشفات الحديثة، لذلك توجد هناك إمكانيات أخرى لتحول المجتمع إلى العلم مرتبطاً بوجود الكثير من المؤسسات والمنظمات التي تتبنى قضية العلم والتفكير العلمي بشكل مستقل عن الدولة، بحيث

والعلم والإبداع . . . الخ .

رابعاً . إمكانية التحول في بنية التربية

سبق وأن أعطينا وصفاً موضوعياً حول واقع التربية العلمية في العالم العربي «نموذج العراق»، ومدى غياب أهم الوسائل والأهداف الحقيقية في تدريس العلوم بشكل نظري وتطبيقي، فضلاً عن غياب الأثر أو الذاكرة العلمية لدى الطلبة بعد انتهاء المراحل الدراسية، الأمر الذي يعكس بشكل حقيقي ليس ضعف القابليات والإمكانات داخل المؤسسة التربوية فحسب، بل كذلك تردّي أو ضعف اهتمام الدولة بالعلم والتربية العلمية، الأمر الذي ينعكس سلباً على المجتمع العربي مع ضعف إمكانات التحول في بنى الاقتصاد والسياسة والمجتمع، لتكتمل الصورة بشكل سلبي إلى حد بعيد .

إن عملية التحول في بنية التربية العلمية تحتاج إلى جهد كبير يتمثل في إعادة هيكلة الدرس العلمي، ليس ضمن جانب النظر والتطبيق أو المادة الدراسية فحسب، بل يشمل المؤسسة التربوية ذاتها بشكل يجعل الدرس العلمي أكثر رسوخاً ويقيناً لدى الكادر العلمي الذي يقود العملية التربوية ولدى الطلبة أنفسهم، وذلك الأمر يتحقق من خلال :

● **علمنة الخطة الدراسية:** وذلك من خلال التفكير بالعلوم وأهميتها في المناهج الدراسية وتغليبها على بقية المناهج الأدبية الأخرى من أجل ترسيخ النظرة العلمية الواقعية لدى الطلبة، وتجاوز التعلق العاطفي والنظرة السطحية للكثير من القضايا التي تخص المجتمع العربي في الأزمنة الراهنة، تلك المرتبطة بالتاريخ الثقافي والمعرفي، الذي يؤثر كثيراً على طبيعة تقبلنا للجديد والغريب عن البنية المعرفية السائدة، وعلمنة الخطة الدراسية تبدأ من توضيح ماهية العلم ونشأته من حيث المعلومات والمعارف العلمية التي جمعها الإنسان بشكل نظري وعملي، إلى الأزمنة الراهنة، فضلاً عن توضيح العوامل الأساسية التي وقفت أمام العلم والنظرة العلمية وتوضيحها لدى الطلبة، تلك المرتبطة بالأسطورة والخرافة وحضور السلطة المرتبطة بالقدم والانتشار والتعصب والتضليل الإعلامي كما ذكرنا سابقاً، كذلك من خلال ترسيخ أهمية التفكير العلمي حول الظواهر الطبيعية والاجتماعية بشكل يعيدنا عن لغة التأمل والخضوع إلى الحقائق التقليدية والموروثة دون التفكير بنشأتها، وفقاً لمقاييس العلم والنظرة العلمية الحديثة تلك المرتبطة بأحكام الكميات والكيفيات وليس عن طريق الماهيات والتأمل فحسب، كما هو موجود لدينا بشكل تاريخي مزمّن . إن علمنة الخطة الدراسية تؤدي إلى خلق أجيال «طالبيّة» واجتماعية فيما بعد تمتلك الانفتاح العقلي والثقافي وتؤمن بالتقدم والمعرفة الجديدة، ولا تعاني من عقد التاريخ، تلك التي تجعل الغريب مهاباً ومخيفاً إلى حد بعيد .

● **الدخول إلى معامل العلم:** يشكل الدخول إلى معامل العلم أو ممارسة التجريب العلمي مهمة أساسية أخرى في سبيل علمنة الواقع التربوي وتغييره، إذ يؤدي الدخول إلى ممارسة العلوم بشكل تطبيقي إلى تنمية قابليات التلاميذ في دراسة العلوم وتعقلها من خلال التفاعل مع البيئة الطبيعية والاجتماعية المحيطة، فضلاً عن ترسيخ فهم الظواهر الطبيعية لدى الطلبة ومساعدتهم على حل المشكلات التي تواجههم .²¹ وهكذا نقول إن تجريب العلوم يجعل مادة الدرس أكثر واقعية ويجعل الطلبة أكثر اهتماماً بها، بحيث تصبح المعلومات التي يتعلمونها وظيفية قائمة على الفهم والإدراك وليست معلومات مجردة قائمة على الحفظ والتلقين .

● **تنمية الإبداع في تدريس العلوم:** لا يمكن أن يعطى العلم كمهمة تدريسية دون الارتباط بالإبداع، إذ يغدو الجهد التدريسي الذي تقوم به المؤسسة التربوية مجرد إعادة وتكرار بعيد عن الجدوى والفائدة العلمية للطلبة والتلاميذ، أو هو بالأحرى عملية تدمير للزمن التربوي الذي يعيشه الطلبة طيلة المراحل الدراسية، فالإبداع يعلمنا كيف نقيس الزمن بمعيّار الحاضر، وليس بمعيّار الماضي، وبما أن الحاضر لا يحوي الإبداع، فإن عملية تكريسه وترسيخه داخل الصف التربوي مهمة أساسية من أجل تجاوز التكرار والإعادة والزمن الواحد الذي يدور حول نفسه بشكل مفرغ من الجديد والمختلف، وذلك الأمر يأخذ بعدين مرتبطين مع بعضهما البعض؛ الأول مرتبط بتدريس القائمين على العملية التربوية من كادر تدريسي وإداري بأهمية الإبداع ودوره في تحقيق التقدم البشري، والثاني معني بتعليم الطلبة قيمة الاكتشاف بشكل نظري وعملي،²² وذلك من خلال :

- التعريف التاريخي بأهمية العلوم والمنجزات التي قدمتها للبشرية جمعاء، وتعريف الطلبة بعظمة العلماء أنفسهم، ومدى حجم المشاكل والمعوقات والتحديات التي كانت تواجههم، فضلاً عن الجراة التي كانت لديهم في تحديد قولهم العلمي والثقافي .
- تنمية وعي الحرية داخل المدرسة والصف التربوي من خلال احترام الأسئلة غير العادية والأفكار غير العادية لدى التلاميذ، فضلاً عن تربية التلاميذ على العقل المتسائل المتحرر من القيود والحدود والإكراهات . . . الخ .
- تدريب الطلبة على لغة المخالفة والاعتراض والاختلاف الذي يقود إلى تقديس الغريب والجديد داخل المؤسسة التربوية .
- توفير الكثير من الزمن التربوي أو المدرسي لقيمة التجريب داخل معامل العلم والمختبرات، فضلاً عن الحرية في استخدام الأجهزة الحديثة مثل أجهزة الكمبيوتر، والتلفزيون، لمشاهدة الأفلام التي تعنى بالمادة العلمية.²³

وليد المسعودي

كاتب وباحث من العراق

الهوامش

العلم، ومنهم هنا نشير إلى نصير الدين الطوسي الذي كتب في المثلثات والجبر والهيئة وإنشاء الاضطرابات وكيفية استعمالها، وكان يمتلك معرفة منظمة وحساً كبيراً في أهمية العلوم المكتسبة من طب وفلسفة وتفضيلها على

¹ اومينيس، رولان (2008). فلسفة الكوانتم . . فهم العلم المعاصر وتأويله، ط 1، الكويت: عالم المعرفة، ص: 316 .

² الأمثلة كثيرة حول العلماء والفلاسفة العرب والمسلمين الذين اشتغلوا على

في الأزمنة الحديثة من معارف مختلفة ومتناقضة تتفاعل مع بعضها، لنتج فيما بعد المختلف الجديد ضمن جدلية متواصلة، على الرغم من أن التعدد في تأويل النص الذي كان سائداً لدينا يمثل بداية حسنة للخروج من الفكرة الواحدة والشمولية التي تقف فوق التاريخ والزمان والحقيقة.

¹⁸ مجلة العرب والفكر العالمي، عدد 9، شتاء 1990، بيروت: مركز الإنماء القومي، ص: 144.

¹⁹ يحدد المفكر عبد الله العروي تاريخياً أن هناك مقاليتين حول الدولة، الأولى تمثل الأخلاق فيها الهرم الرئيس؛ أي إنها تتقدم على مفهوم الدولة، وأن الأخيرة هي اصطلاحية ناشئة من أفكار مسبقة تتعلق بالغاية الحقيقية من حياة الإنسان على هذه الأرض، التي تحمل صورة المؤقت والعابر دون أن يوجد فيها ما هو دنيوي متعلق بتحقيق الذات والرغبات والمتع... الخ. أما الثانية، فإنها طبيعية ناشئة عن ضرورة الاجتماعي الطبيعي للبشر أنفسهم، ومن ثم هي دولة معقولة تحمل التجانس ما دامت تستطيع أن تحقق الرفاه والسعادة والحرية للإنسان من خلال مبدأ التعاون والتضحية من قبل المجتمع، وهذه النظرة إلى الدولة ترى الإنسان كائنًا خيراً في طبعه إذا ترك الأخير إلى طبيعته يعمل ويكتشف ويدع ويحقق الحرية والسعادة. وكلا المقالين تحمل المثال والوهم حول صورة الواقع الإنساني، وتحجب الكثير من حقائق الصراع البشري تلك المتعلقة بتاريخ طويل من القمع والإلغاء للوجود الإنساني، من خلال مفردات تتعلق بالتعاليم الدينية والأخلاقي، أو تتعلق بوهم المجتمع الطبيعي كامل الإنسانية من حيث النشأة والأصل. راجع: العروي، عبد الله (2001). مفهوم الدولة، المركز الثقافي العربي، ط7، ص: 12-13.

²⁰ إن المقارنة بين المدن والضواحي على الرغم من تردي المدينة العراقية وتحولها إلى ريف كبير لا يمكن وصفها أو تعريفها من حيث عدم الاهتمام والإقصاء والنهميش لأسباب اقتصادية وسياسية واجتماعية... الخ، فما زالت مدينة الثورة «الصدر» حالياً تشكل معملاً خديماً للمدينة (بغداد)، دون أن يوجد فيها الإمكانيات في تجاوز مسألة التوريث الخدمي والمهني والعمالي بالطرق والوسائل كافة، لذلك نجد أن أكثر خريجي كليات العلوم والطب لا ينتمون إلى هذه الضاحية ضمن حدود النسبي، بل هناك الانتماء إلى كليات الآداب والتربية والاجتماع وغيرها، وذلك إن دل على شيء، فإنه يدل على ضعف القابليات والإمكانيات في تحقيق ذلك الأمر.

²¹ تجريب تدريس العلوم بالمدخل الياباني في بعض مدارس المرحلة الابتدائية، د. منصور عبد السلام فتح الله، المجلة التربوية، الكويت: مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت، العدد 67، حزيران 2003، ص: 123.

²² هنالك من يفسر نشوء عملية الإبداع من خلال عاملين، الأول وراثي يعتمد على الإمكانيات الوراثية من مواهب وقدرات عقلية وإبداعية، وذلك الرأي له امتدادات قديمة ترتبط جذورها بأفلاطون، والأمثلة على هذا الشكل من الإبداع كثيرة، مثل بيتهوفن الذي كانت عائلته تملك تسعين عازفاً وكذلك الحال مع غوته، وفان كوخ، وميخائيل أنجلو. أما العامل الثاني، فإنه اكتسابي يتم عبر الممكنات العقلية المكتسبة وليست له علاقة بمؤثرات الوراثة، بل يعتمد على مؤثرات البيئة المحيطة كالعائلة والمدرسة والمجتمع، فضلاً عن الظروف المحيطة بالمدع من اجتماعية وثقافية واقتصادية، كلها تؤثر على الإبداع في شكل أو بآخر، وهذا الشكل من الإبداع مثاله اينشتاين وبيكاسو وباسكال وغيرهم، راجع: صالح، قاسم حسين (1990).

²³ سيكولوجيا الإبداع الفني، بغداد: دار الشؤون الثقافية، ص: 9. عاقل، فاخر (1979). الإبداع وتربيته، ط 3، بيروت: دار العلم للملايين، ص: 156.

العلوم التقليدية من فقه وحديث، وصولاً لتحديد امتيازات أكثر لدى الطلبة الذين يقبلون على دراسة الفلسفة والطب. راجع: رضا، محمد جواد (1989). أئمة الفكر التربوي الإسلامي، ط 1، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، ص: 135-136.

³ هوكنغ، ستيفن (1990). موجز تاريخ الزمن، ط 1، بغداد: دار المأمون للثقافة والإعلام، ص: 40.

⁴ حجازي، مصطفى (2001). علم النفس والعولمة.. رؤى مستقبلية في التربية والتنمية، ط 1، لبنان - بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ص: 51.

⁵ في استطلاع أجري من قبلنا مع عدد من طلبة العلوم في المدارس الإعدادية بين جيلين مختلفين حول مفردات ومعلومات تلقيناها في مراحلنا الدراسية الأولى بعد التخرج من الجامعة، وجدنا أن نسبة كبيرة من هؤلاء الطلبة ينتمون إلى الجيل الحالي يجهلون كثيراً ماهية التنفس مثلاً أو القلب وطبيعة عمله أو إيجاد تعريف بسيط له، وذلك إن دل على شيء فإنه يدل -كما أسلفنا- على التراجع عن تكوين ذاكرة علمية اجتماعية لدى الأجيال القادمة.

⁶ زكريا، فؤاد (1988). التفكير العلمي، ط3، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ص: 60-61.

⁷ يفسر الكثير من العامة في العراق الاحتلال الأميركي بأنه إرادة الله بأن سلط قوى كبيرة على نظام مستبد وحاكم ظالم، وبذلك تكون الإرادة الإلهية هي مصدر الفعل والتحكم في سلوك البشر أنفسهم، وهذا الأمر يسير بالمقارنة مع التفكير بالمرض على سبيل المثال، وكيفية حدوثه بعيداً عن العلل والأسباب الحقيقية لذلك الأمر، أي بعيداً عن تدخل الإنسان وما موجود من سلطات سياسية واقتصادية واجتماعية فاسدة لا تقدم الخدمات الصحية والتربوية بذلك الشأن.

⁸ التفكير العلمي، مرجع سبق ذكره، ص: 83.

⁹ بن عبد العالي، عبد السلام (1979). الفلسفة السياسية عند الفارابي، ط1، بيروت: دار الطليعة، ص: 27.

¹⁰ ليفوت، سالم (1991). الزمان التاريخي من التاريخ الكلي إلى التواريخ الفعلية، ط1/ بيروت: دار الطليعة، ص: 15-16.

¹¹ سليم، محمد صابر، وسعد عبد الوهاب نادر (1968). الجديد في تدريس العلوم، ط1، بغداد، ص: 41.

¹² اومينيس، مصدر سبق ذكره، ص: 316.

¹³ باشلار، غاستون (1981). تكوين العقل العلمي، ط1، بيروت - لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص: 47.

¹⁴ التفكير العلمي، مصدر سابق، ص: 92.

¹⁵ ليوتار، جان فرانسوا (1984). «استطلاع حول مغامرات العقل في الفكر والعلم المعاصرين»، مجلة دراسات عربية، ص: 140.

¹⁶ من الممكن هنا المقارنة بين العقل الجمعي في المجتمعات العربية الإسلامية، وهو السائد اليوم، وبين العقل الفردي في الحضارة الغربية الحديثة، فالأول يستمد معقولته من الله والوحي وجميع المفارقات للعقل البشري، ومن ثم هو عقل جمعي، منغلقة على ذاته، يحرم الإبداع والانتقال من فضاء معرفي إلى آخر، بينما العقل الفردي، فإنه يوجد الفرد فيه كذرة متحررة تمتلك الإرادة في تقبل العالم، وذلك الأخير غير مطلق تتحرك فيه جميع المعقولات والمعارف بطبيعة نسبية في الاعتقاد واليقين.

¹⁷ إن التعدد الذي كان سائداً في بداية ظهور الإسلام لا يحمل التناقض والاختلاف مع الأصول والمبادئ التي يستند إليها، بل هو تعدد ضمن طبيعة تفسير النص المعرفي وتأويله، وهنا يختلف ذلك التعدد عما هو موجود